سر من أسرار العربية

نرجو ان نصل الى حقيقة في الفلسفة العربية

محمود محمد شاكر

أفضنا في الكلمة السالفة — في ذكر الحروف الحلقية، وبدأنا بالهمزة ونظرنا بعض النظر في معناها ما هو؟ ويحسنُ أن نعود الى استقصاء القول في هذه الهمزة وسائر الحروف الحلقية، واستخراج أكثر معانيها من الفطرة. ثم كيف هو دورانُها في الكلام العربي، ثم كيف تنزلُ عن بعض معانيها من تركيب الكلمة لدلالة أخرى تفضي الى معنىً يكون شارعاً من الأصل أو مستمداً منهُ أو طارئاً فيه، أو ليكون اعتراضها مسقطاً لبعض المعنى في حرفٍ آخر ليعادلَ بهِ الى القصد في إرادة معنى بعينهِ ينشأ من اشتراك هذه الحروف الدالة في تركيب الكلمة. ويقتضينا هذا المذهب أن نسبقَ الى عرض بعض معاني سائر الحروف العربية في مدارج القول، إذ كان الاشتراك بين هذه الحروف في الكلمة مدعاةً للبيان عن معانيها. وإذ كان ذلك كذلك، فستجد كلامنا عن هذه الحروف الحلقية مختلطاً بغيره من بيان معاني حروف أُخر من حروف اللسان العربي. وإنما أردنا ذلك اختصاراً وتخفيفاً. فلو ذهبنا نفرد لكل حرف مقالاً لتلبّث الجهد، ولكان على القارىء أن يبقى منتوساً في فكره في هذا الباب أشهراً بعدد حروف العربية. ونحن إنما نجعل كلامنا هذا كالتذكرة لنا وللقراء في هذا العلم، ولأن نتحرى — حتى يأذن الله فيتيح لنا من الفراغ والهمة والجِدة والتوفيق ما هو بعضُ نعمهِ علينا وآلائهِ — أولى وأخلقُ، ولأن يكون ذلك مخبوءاً لنا حتى نضع كتابنا في « سر العربية » — أحبُّ الينا وأجود للبيان، فان بيان الرأي — في سِفرٍ من كتابٍ يؤلف الغرض بشملهِ — أحرى بالاستفاضة فيه من مجلة تحد الرأي بمحدود من الورق!

ولقد علمتَ ان ضرورة الحياة الفطرية الاولى هي التي نزعت بالحرف الحلقيّ المعروف — المسمى في عبارة المتكلمين « بالهمزة » — أن يكونَ هو أقربَ الحروف الى النداء، والتعجب، والاستفهام، والاشارة، والتنبيه، والأمر، والتحذير، وذلك لأن هذه المعاني

كلها ليست الاَّ أقربَ الحوافز التي تحفزُ الانسانَ الفطريَّ الى ارادة التعبير ، لفرط حاجته الى كل منها بضرورة الطبع ، لِما يلاقيه مما يَصدمُهُ ويتدمَّرُ عليه من تصاريف الحياة ومخالف الاحوال التي تُثقِلُ عليه فتدفعهُ الى نداء مَنْ يستعينه من أبٍ او ولدٍ او أخٍ او زوجةٍ ، او تحمله على الاستغاثة ، بالاشارة ، او الاغاثة بالتنبيه والتحذير . ثم لما يتجدد عليه مما يستخرج عجبَه او ما يصعبُ عليه مما يستغلقُ ويستبهمُ ، فيحمله الى طلب الاستفهام او الاستنكار . ولعلك لستَ تشكُّ في ان ذلك هو أولُ ما يبدأ الحيُّ على الارض وما يتنازعهُ من الضرورة ، كما لا تشكُّ في ان أوَّل مطاوع لهُ من الصوت هو ما يصوّتُ من الجوف والحلق ، دون ما يكون تصويتهُ من قِبَل اللسان والفم والشفة مما هو لا يُطيع الاَّ بالمداورة والفرّ والتمرين والدُّربة على حركةٍ بينها مرة بعد مرة . وفي أصوات سائر الحيوان — خلاف الانسان — دليل ذلك والبرهان عليه وعلى صحة مذهبنا اليه ، فان اصوات جميع الحيوان انما هي اصوات حلقية تتردد ، الاَّ ما كان من مثل صوت الغراب والقطا والجُندب والبازي والقطا وما الى ذلك مما افردَ من الحيوان والطير بحرفٍ يتردد ، في مدارج قصبة او منقطع صوته . ثم لا يكون ذلك الاَّ حرفاً واحداً متقارباً ، او بعض حرفين متجانسين يتلبَّس شدتهما ألفٌ او همزةٌ مختلسة تكون بينهما فاصلةً

ولما كان من اول ضرورة الحياة الفطرية أيضاً ان يلاقيَ الانسان من الهول ما يفزعه ويخيفه وما يتعرض لهُ من الجرح والكلم في صراع غيره من الانسان والحيوان ، وما يجد بعد ذلك من الالم والشدة ، ثم ما يحمله عليه الألم المضنيُّ من التأوه والانين والتيظ والحنق ، ثم ما هو من دواعي الفطرة الانسانية القائمة على الغرائز الاجتماعية كالذي يجده اذا توحَّد وانفرد من الحنين والحيرة والوجد — لمَّا كان كل ذلك وما اليه مما يتصل به ، كان أيضاً من ضرورة الحافز الذي يستوفزهُ ويرتفع به الى ارادة التعبير ، ان ينحو به الى أول ما يطاوع من الاصوات ويتأوه ويخف ولا يحتاج الى المداورة والتمرين

فاذا تدبرت ذلك واوعبت لفكرك اليه وفيه ، وتعقبت كل الصلات والاسباب التي تمتد به الى سائر المعاني التي تنظر الى هذا الاصل او تتخايل عنهُ — عرفت انهُ لا بدَّ من اشتمال كل هذه المعاني على الدلالة الفطرية التي تدلُّ بها طبيعة الانسان على أغراضه الاولية القديمة . فكلُّ ما يرجعُ أصلُ معناه او بعض اجزائه الى هذه الدلالة ، فالواجب لذلك إذن ان يشتمل على حرف الحلق الأوَّل وهو « الهمزة » ، او على الحرف الثاني الذي يقاربه ويشابهه ولا يختلف عنه إلاَّ بنفحةٍ هوائية رقيقة هينة في جوار الحنجرة وهو « الهاء » . فاذا تصرفت قليلاً على من هذا الاصل ترقيت الى « النبي » ، « فالخلف » : « فاللين » : « فالقطا » ،

مقدماً «الحاء» على جميع هذه الاربعة الاخيرة لخفتها وسهولتها وسلامتها واقترانها بالحشرجة الحلوة: اللطيفة الرقيقة المتسربة في تصويتها كأهداء السراب، وأحّه وآلته.

فاذا صح لك ما نذهب اليه، استخرجت من ذلك ضرورة ان تكون جميع الألفاظ العربية — التي تدعي لها هذه الحكمة الشريفة: في إساس الحرف والكلمة شيئاً من معاني الفطرة ودواعيها — مبينة كل الابانة عن هذا الرأي الذي نجري اليه، باشتمالها على أحد هذه الحروف الحلقية. ويقتضي ذلك ان تكون كل أدوات الاستفهام والنداء والاشارة والتنبه والفزع والتحذير، وسائر الالفاظ ذوات المعاني المقاربة لذلك — مشتملة على أحد هذه الأحرف. ثم يكون منه أيضاً ان جميع أسماء الأصوات الدالة على صوت الانسان والحيوان والطير والحشرات قد جمعت طرفاً صالحاً منها، حين تكون هذه الاسماء — أو الأفعال — دالة على حكاية صوت حلقي يكون لهذه الخلائق. وآذن فواجبنا — بعد الذي قلناه وعرضناه — أن نقدم الدليل من ألفاظ العربية على صحة ذلك، وأنه طريقة معهودة على لسان هؤلاء الناس من العرب. وأنه إذا كان ما نقول به، فاللغة العربية هي حقاً — على ما ادعيناه في الكلمة السالفة — أدق اللغات. وأكثرها احتفاظاً بالمعاني الفطرية للحروف، وبالحركات التي لجأ اليها الانسان الأول فقرنها بالحروف للدلالة على معنى ليس يقوم الحرف على بيانه كله اذا أفرد وحده للتعبير عنه.

ولقد رمينا اليك — في الكلمة السالفة — طرفاً من القول في حروف الاستفهام والنداء والتعجب والاشارة وما يجري اليها من معنى الضمائر، ثم في الكلمات الثلاثية المضعفة التي اجتمع عليها في التضعيف حرفان حلقيان وهي «أحّ» و«أهّ» و «أخّ»، ثم كشفنا عن معانيها بعض الكشف. فالآن ننتقل بك إلى حروف الحلق المشتركة مع حروف أخر من حروف اللسان، ولن نستوعب كل ذلك، فانه يقتضينا — إن فعلنا — شرح اللغة كلها على مذهبنا، وهذا إن اجتمع في كتاب جمعه في مقال يتعذر مرة ويثقل على قارئه أخرى

فلو أخذت الهمزة وبدأت بها في قولهم: «أبْ»، «أتْ»، «أثْ»، «أجْ»، «أدْ»، «أذْ»، «أرْ»، «أزْ»، «أسْ»، «أشْ»، «أصْ»، «أضْ»، «أطْ»، «أظْ»، «أفْ»، «أكْ»، «ألْ»، «أمْ»، «أنْ»، «أوْ»، «أيْ» — وقد أجملنا القول قبل على «أحْ»، «أخْ»، «أهْ»، «أعْ»، «أغْ»، «أأ» — تعزوا عنه وتركوه وأهملوه لعلل ذكرنا بعضها كما أهملوا أيضاً «أقْ»، وذلك لأن هذه «القاف» كما علمت من أول مقال لنا — هي الحرف الذي يلي مخرجه مخرج الحروف الحلقية، فهو الحرف الثامن بعد الحروف السبعة الحلقية المدونة بها في ترتيبنا. فاذا كانت الهمزة أشد الحروف

مطاوعة للانطلاق وحافزها أقوى حوافز الحروف الحلقية فاتباعها بالحرف الذي يداني اللهاة وأقصى اللسان ويرتطم بالحنك الأعلى ويتردد فيه جاسياً غليظاً منحصراً (١)، يكون مستفلاً على النطق ، ثقيلاً في السمع . وأيضاً فإن القاف — هي في ترتيب الحروف الشديدة التي وصفناها لك — تلي الهمزة، وهي أول هذه الحروف الموصوفة بالشدة ثم الاستعلاء أيضاً . فهم لم يريدوا أن يجمعوها مفردة في كلامهم لذلك وقالوا « حق » ، « عق » لما تعرف من صفة العين والحاء على ما يتوجه اليك من خوى بعض كلامنا آنفاً .

ونحن سنأخذ هذه الكلمات المبدوءة بالهمزة على ترتيب متصل ، وذلك بأن نصلها لك على مخارج الحروف التي تليها ، فأول ذلك :

« أكّ » فأصل هذه المادة عندنا من صوت احتكاك الاجسام اللينة بعضها ببعض . لأن الكاف تمثل في النطق صوت شيئين ليّنين بَيْنَ بَيْنَ زحم احدهما الآخر زحماً شديداً . والأكّة في اللغة الزحمة والضيق ، وأكّه زاحمه . وهذا المعنى للكاف ثابت في قولك « حكّ » و « دكّ » و « عكّ » الشيء سحقه ، وهذه كلها حروف حلقية تبعها الكاف ، إذا أنت أخذت في مثل « بكّ » أي زحم ، و « تكّ » الشيء اللين الرطب وطئه فشدخه و « دكّ » ، و « زكّ » في مشيه قارب خطوه وحرّك جسده واحتكّ بما ثوبه « وسكّ » و « شكّ » و « صكّ » .... رأيت كل هذه تحتمل كأنما لها معنى الاحتكاك أو تصوره أو مقاربة صوته (٢) ولكنه في « أكّ » و « حكّ » أبين المعنيين ، لأن الهمزة والحاء حرفان أصليان دالان على الأصوات الأولى التي هي أقرب من سواها إلى حكاية هذا الصوت (٣)

ثم انك « أثّ » ، « أجّ » والثاء نحن نطيعها صوتها التفشي المستطيل الليّن الذي يهمس به ، ويصف لها الاعتماد في مخرجها حتى يجري معها النفس بين الحنك الاعلى واللسان مع انفتاح الشفتين مع الامالة الخفيفة . ويلقى هذا الصوت الاذن فيمثل صوت الحركة الخفيفة التي تكون كأنها من احتكاك الثوب المنشبه او صوت وقوع الرش الخفيف من المطر او صوت حفيف الورق الأثيث على أشجاره اذ تناوله النسيم المترّح ، ويمثل أيضاً صوت

---

(١) الهمزة تريد الانطلاق والخفي حتى تلاق الهواء ، والقاف تريد ان تقطع عليها ذلك لتسترد منها من المخرج ومقتضه الصوت الذي تتمثل فيه تترددهما عليه ، وارتداد اللسان بها وبهوائها المحصور في مخرجها ارتداد يعوق انطلاق صاحبتها في مخرجها من [illegible]

(٢) [illegible] حرف معنى [illegible] اشتراك الحروف دون المعاني في الكلمات الواحدة [illegible] معاني [illegible] الحروف الجمة [illegible] عليها [illegible] الاصل التي [illegible]

(٣) [illegible] تقارب معاني بين هذه الكلمات [illegible] ولكنك [illegible]

الضاحك اذا انفقت تَقَتّــهُ بضحك خفيفة لا تبلغ القهقهة ، مع انفراج الشفتين واستعلاء الشفة العُليا . وتجد أكثر هذه المعاني دائرة في « اشْ » ، و « هشْ » ، و « حشْ » ، و « خشْ » و « بشْ » ، و « نَشَّت » القدر تنش ، وهو صوت غليانها ، و « رشْ » الارض بالماء . و « كَشَّت الحيّة » والمرأة أيضاً اذا كَشيشاً وهو صوت جلدها اذ حكّت بعضه ببعض . ولذلك كُلِّه قيل في « أشْ » ان الاش والاشاش الطلاقة والبشاشة لما يتبع الارتياح والنشاط والخفة والضحك من الحركة التي تستتبع هذا الصوت ، وأشَّ غنمهُ كهشها ، وأشت الشحمة اذا نشّت وقطرت فسمع لها مثل هذا الصوت

وأما « أجّ » ، فمن قبل ان الجيم أجهر وأقسى وأغلظ صوتاً من الشين ، واللسان بها أشد ضغطاً للهواء في غار الحنك الاعلى ، وصوتها جافٍ على السمع ظاهر لا لين فيه ولا قطر له ولا همس يأتي من قبله — لذلك دخلت مع الشين في بعض معانيها ، ولكنها خرجت من بعضها الآخر بما أخرجها من المنزلة التي مازتها عنها في مستقبل السمع . وبعد ، فإن « أجّ » هذه وما يليها من « هجّ » و « حجّ » و « عجّ » بالدعاء ، و « ثجّ » المطر يثج سالَ فسمع صوت سيلانه ، و « هجّ » ، و « لجّ » — الجيم في جميعها دالة على حكاية صوتٍ وصفناه بما وصفناه فأخذ منه « أجّت » النار و « هجّجت » اذ اتقدت فثالت فسعرت فاستطارت فسمع صوت تلهبها الذي مثله الجيم ، كما يظهر لك اذا تدبّرته وداورته على المعنى الفطري للحرف (١)

وأما « أيّ » وهو الياتي الذي عددناه مع الشين والجيم في مخرج الحروف الشجرية فليس هذا مكان الافاضة في ذكره ، لما نعلم بما أشرنا اليه آنفاً في بعض كلامنا من أننا نرى في الالف والواو والياء رأياً نخالف به ما ذهب اليه أئمتنا رضوان الله عليهم ، وان في سرّ تطوره من حرفٍ حلقيّ الى حرفٍ شجريّ موضعاً للنظر ، ومجالاً يجول اليه الرأي . فندعه الى موضعه الذي ينزل عليه في اوانه ان شاء الله

واذا درجت الى « ألْ » : رأيت اللام ، وهي عندنا من الحروف ذوات المعاني المتشابكة ، وذلك ان اللسان معها يعمل اعمال حروف كثيرة . ولقد علمت أن مخرجها — فيما أطلقنا — هو من أدنى حافة اللسان الى منتهى طرفه حيث يندفع اليها الهواء المقذوف من الجوف ، فيحصر اللسان هذا الهواء حصراً بين الشدة والرخاوة في الحنك الأعلى مما فوق الضاحك والناب والرباعية والثنية . وعند ذلك يتكسر هذا الهواء المحصور في جوف الفم من كلا جانبيه ، ثم

---

(١) أرجو القارئ [illegible] يعذرني في الاختصار المخوف ، فإني وأنا أكتب هذا أكاد لا أمسك النفس عن الاستزادة ، لأني أكتب وأنا أحمل النفس على التأمل ، فتتداول في المعاني فلا أدري . آخذ منها وأدع ؟ وقد ذكرت في [illegible] الاولى ان هذا بحث [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] . [illegible] [illegible] الصبر [illegible] في هذا [illegible] — [illegible] تأمل — ان يصل الى مثل الذي يريده [illegible] ان شاء الله

ان بعض هذا الهواء يجول في ميدان كأنه يروم المخرج من الخياشيم : وهو مخرج النون . فلذلك ترى هذه اللام اذا وقفت عليها في مثل « هَلْ » و « فَلْ » ، قذفت من المنخرين نفساً خفيفاً همساً ، تنتشر معه الخيشنتان[1] قليلاً قليلاً ، وكذلك تجدها كأنْ قد أُشرِبتْ من غنة النون في اكثر المنطق . وهذه الملامح الكثيرة التي اختلستها اللام من الحروف التي تليها كالنون والراء والميم ، ومن الحروف التي سبقتها كالجيم والشين والضاد ، هي التي راحت من معانيها وكثّرتها وغشّتها على من يروم فقهها وضبطها ، وهي ايضاً التي جعلتها اكثر الحروف دوراناً في كلام العرب للطفها وضعفها ورقّتها حيث كانت — ولا تكون هذه الرقّة التي بها الا مشوبةً ببعض القوّة والشدّة ، فهي إذن أعدل الحروف وأحسنها استواء فلا تتناعس عن باغيها ، ولذلك ايضاً تجدها لا تدخلها العيوب التي تدخل سائر الحروف كالراء التي تليها ، وهي تدخلها اللثغة في لسان الألثغ فلا يستقيم له معها المخرج ، وانما ينحاز الألثغ — اذا غلبته لثغتهُ من الراء الى اللام ، فاعرف هذا وتدبّره وانعم نظرك له وفيه[2]

قالنول في « ألّ » ، و « هلّ » يفترق من القول في اللام التي تلي سائر حروف الحلق مثل « حلّ » « وعلّ » ولذلك تقصر القول على « ال » و « هلّ » : فالألف والهاء هما عمدة باب الحروف الحلقية كما امضينا آنفاً . واللام في هذا الموضع تمثل للالحاح والتردد والانتشار ، ومعاناة للتحفز الذي يأتي بالصوت في اندفاعه . الا ترى ان صوت اللام — اذا حققته — شبيهٌ بالجرس الذي تسمعهُ من اصطدام شيء لين ببعض اللين بشيء من مثله فيقرع مسمعك اليه فنصغي له . وعلى ذلك فمعنى « ألّ » — ابتداء يتضمن الاشارة الى حركة مقرونة بصوت بين بين ، فلا هو جاسٍ ظامئ ، ولا هو رطب مختلط بمائه . وكذلك هو في اللغة : ألّ الفرس اذا أسرع فاهتزّ فسمع من الرمل صوت حافره اذا وقع عليها متتابعاً متردداً ، وكذلك ألّ البرق ، وألّت المرأة : رفعت صوتها بالدعاء او غيره . والأليل من ذلك هو الانين والحنين عند الجزع ، وهو خرير الماء على الربة ، وهو صوت الحصى اذا وقع على الرمل . والقول في « هَلّ » قريب منهُ فقالوا : هَلَّ السحاب وانهلّ بالمطر ، ذلك اذا قطر فوقع ماؤه فسمع صوت هذا الماء حين يصطدم الثرى والرمل بحباته في شدة انصبابه ، وتردد هذا الصوت مرة بعد مرة ، ومنهُ « أهلّ » اذا رفع صوته بالدعاء وردّده .

فاذا صرتَ بعد هذا الى الحرف الذي يلي اللام وهو النون في « أنّ » ، حيث يبعث الهواء المقذوف الى الخياشيم ، فيحار فيها ويتردد ويجول ويسمع لجولانه في الانف صدًى

---

(١) هم حرفة المنخرين — [illegible]
(٢) لا [illegible] في ذكر اللام [illegible] معانيها [illegible] كل معنى [illegible] خرجت وحدها في أوراق [illegible] مقالة برأسها

ناعماً تتبعه غُنَّة مُدَوِّية باحتكاك الهواء بجدار الأنف — رأيت المعنى يتسلسل من اللام الى النون مختلفاً في الدلالة اختلافاً بيناً مرة ومقارباً مرة أخرى. ثم هو من أجل ذلك حرفٌ دَمِثٌ طيّعٌ مترقّق ناعمٌ حُلو النغم لطيف الترديد يسيل مع الهواء بيناً ونعومةً ورقة، لاتدركه الجفوة التي تعرض لسائر الحروف مع التحريك اذا حرّك، فهو لطيفٌ مطاوع ذو نَغَم اذا حرّك او سكّن. فهو اذن أقرب الحروف للبيان عن المعاني الصافية التي لا تحامل أصواتها الى المادة وصوتها، ولذلك يدور اكثر ما يدور في الالفاظ ذوات المعاني النفسية الصافية التي تذوب فيها آلام النفس وأحزانها وأحلامها وأفكارها التي لاتتكلم الا لحناً واشارة وتلويحاً. فكذلك هو في معناه اذا قلت: «أنّ» أنيناً، و«حنّ» حنيناً وحناناً، و«هنّ» هنيناً، وهو كالحنين والأنين، وكذلك «خنّ» خنيناً، وهو الانتحاب والبكاء الذي يتردد حتى يصير في الصوت غُنّة من جولان البكاء في الخياشيم. وذلك كلهُ من أجل الحزن الذي لا يفسّر عنهُ الاّ بالصوت المبهم المطاوع لحركة الجسد اذا حُرِّك من نوازي الأحزان الداعية الى هزّ الاعصاب وبالرجفة التي تلحقها من تنزّيه فيها. ولكن انظر الى «خنّ» وتدبر فعل «الخاء» في توجيه المعنى الى الشموخ والاستعلاء ورفع الصوت بالبكاء، وخشونة الصوت التي تكون في هذا الضرب من البكاء او الضحك المشوب بالترفع والاشمئزاز، والى التدفّر والمعالجة التي نجدها في البدء بالخاء. ومن أجل هذا يتباين الانين والحنين من «الخنين» تبايناً صحيحاً في الدلالة على هذا الأنين المشوب بالصوت الذي وصفناه لك

ونحن نقف بالقول عند هذا الحدّ الذي حدّه الفرق الصوتي أيضاً بين النون والراء التي تليها في المخرج، ولعلك قد رضيت عن هذا الضرب من النظر، ولذلك تحمل نفسك على معاناته وتمكّنه، ولعلك تجد لهُ من الطرافة والحسن واللذة، ما يحملك تمضي في اتمام ما اسقطناه من كلامنا. فاذا فعلت عرفت لطف هذه اللغة، وملابستها للطبع والطبيعة والفطرة، وان اصحاب هذا اللسان كانوا ارقّ الناس احساساً، وألطفهم فهماً، وأحسنهم تهدياً الى المعاني، وأنفذهم لسحر الطبيعة وأنغامها ولغتها التي تجري في ارواح الشعراء بالمعاني والاحلام

واعلم اننا انما اخذنا لك من ابواب الكلام في هذه الكلمات، ما يُعَدُّ من أصول المادة اللغوية التي يكون الحرف دالاً عليها، وتركنا ما هو مجاز واستعارة في مذهبنا، وان كان اصحاب علم اللغة يعدّونه من أصل المادة أيضاً. واذا جاء أوان شرح المجاز من المعنى الاصلي الى المعنى الذي انتقل اليه اللفظ بعد، عرفت من هذه اللغة شريفة جليلة دقيقة التركيب، مع ما تبين في قياسها من النبل والاستواء والاستقامة على مذهب لا يختلف ولا يتناقص ولا يختلّ والله المستعان